قيود القدر..

بقلم

سجى جراح

قيود القدر..

بطاقة الكتاب:
اسم الكتاب: قيود القدر
اسم الكاتب: سجى جرّاح
نوع الكتاب: قصّة
عدد الصفحات: ٧١ صفحة
المقاس: ١٤ x ٢٠
رقم إيداع: ٢١٩٤٤ /٢٠٢٠م
الترّقيم الدّوليّ: 978-977-6736-27-6
الطّبعة: الأولى، ٢٠٢٠م

رئيس مجلس الإدارة

مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:
00201129195867-00201033966291

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة

فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناشر عدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية، كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرّض الناشر للمسؤولية القانونية.

قيود القدر..

بقلم

سجى جراح

فريق عمل

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف **إسلام عبدالحليم**

التنسيق الداخلي **مها المقداد**

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد

+201289024055

Mahaelmukdad@gmail.com

إهداء

إلى قدر جمعني بما، ومن أحبّ..

لمَن أطلق على حلمي اسمه،

لمكانٍ حُفظت صورته بين صفحات كتاب حياتي،

لحلمي الّذي بات يبكي على وسائد عقلي،

لقلمٍ ساندني حاملاً مهجع الدّموع والألم،

لنفسي السّاعية رغم الإحباط..

على أرض العقل، وبين شجرة الماضي، وشجيرة الحاضر اختلاف تربة مُلئت بجذور الأصل المسقيّة بماء الزّمان، وعلى أغصان الحياة فيهما تنبت أوراق الذّكريات المحمّلة بغذاء مُرّ الطّعم أحيانًا، وحلو المذاق أحيانًا أخرى، وتتفتّح أزهار الأيام الذّابلة ذات اللون الباهت بين ورقاتها؛ لتكتب مواقف الفرح وما مَرّ من انبثاق الأمل معها؛ لترهقك وتسعدك.

هذه أرض الحرّيّة المقيّدة بسلاسل الانقضاء محفوظة كجنّة وسط ساحتها الجرداء..

وبين كلتيهما مساحة شاسعة، قد لا تُرى بعين عقلك، وواضحة تمام الوضوح لبصيرة قلبك، هنا حيث وجد ذلك الحدث الّذي غرسَ بأرضك الانتقال، وأنبت فيها شجيرة الحاضر ففي لحظة ولّت فقس الوجع من بيضة الرّاحة، وقُضي العمر، وزاد العمل على عاتق رمش الحاضر، وارتاح الماضي، فيا ليته مات؛ ليخفّف الحمل!

قد بقي؛ لتسترجعه، وتضحك الألم، أو تبكي الأمل..

في الحالتين؛ ستخسر جزءًا من نفسك مع صراع النّضج، وبقائك ترتع بابتسامة طفل لم يدرك هذا الفخّ بعد.

أمّا الآن لا حضن أم يدفئك، ولا صوت أب يحميك، ولا فعل أخ يضحكك، أنت لوحدك، تبني عمار عيشك، وتجني مال قوت سعيك، وتجمع طرق الحياة واحدًا واحدًا؛ لتتقن السّير بلا أحد، لا تقلق! لقد مارست لعبة الحياة سابقًا، ما تعيشه نسخة مكبّرة عن تلك، إلّا أنّ لا وجود لشخص يساعدك على اجتيازها؛ ستكون وحيدًا بين حائط الماضي، وسقف العمر.

في زنزانة الظّلم استيقظ وقلبه يرتعد خوفًا، ثابت الجسد؛ لينال حضور شجاعة لا وجود لها، هذا الصّباح مشابه لما سبقه، إذ لا زال يعيش على لقيمات الظّلم المطهوة بنار قِدر القدر، ثمّ يصبّها في جوف الظّلام، ونهاية يرتشف فتيل النّور ناسيًا أنّ عليه الاحتفاظ به؛ فيخيب ما أصابه من قبل، ويزداد ظلام الحياة مع ازدياد الظّلم..

- يراودني حلم هو خيط شمعة عقلي الباطنيّ كلّما سرحت قليلاً؛ لأحرق الماضي يبدو إنّني لن أجتز عقبة ضخمة كهذه حتّى بعدما مضت عشرة أعوام من حياتي!

إلى لحظتي هذه لم أنهض عن كرسيّ خشبيّ صنعته من شجرة حياة أمي المهترئة قبل ثمانٍ وعشرين خيبة، وستٍّ وستّين كدمة إدراك.

في ظلّ ذلك اليوم قبل خمسة عشر عامًا استشعرت ثقلًا لم أعلم وجوده من قبل، سرت أحمله؛ لأنّني مجبر، مكره عليه، خطوت أولى خطواتي بعيدًا عمّا يسمّى (مرحلة الطّيش)، وعلقت بحملي هذا داخل سجن مقفل إلى الأبد.

أتمنّى عودتك يا من رحلت وإيّاك السّعادة! كيف لقلمي الهشّ أن يروي تفاصيل ماض لم أجرؤ على مسّها إلى الآن؟

لا زلت مجبرًا، مكرهًا، ضعيفًا، لا أتقن الاختيار!

قبل مئات البسمات، استفاقت روحي على صوتها وجسدي منهك من اللعب مع صديقي حسّان، في كلّ صباح تحيّي أمّي والدي وتودّعه فهو ذاهب إلى اللاإمكان، الخالي من الزّمان، حياتي متوقّفة منذ ذلك اليوم، ولا زلت أنتظر العودة، هذا وعده الأخير والوحيد لنا.

مرحبًا بمن يرى الأحزان، ويصادق الأوهام، في البلد المحتلّ لا أمان، وصراع في أيّ مكان، كلّ يوم عشرات الجثث تسلّم الرّوح وتعود إلى باريها، تقطع الطّريق الّتي ربطتها بدنيا لا أمل فيها..

وها أناالیوم كسابقه أستيقظ على هذه الكلمات الّتي من حرير الألم نُسجت، ومن وردة ميْتة استخلصت.

رفعت ناظري فإذا بزوجة المحارب تصلّي وصوت دعائها يداوي القلب..

الأمّ: صبّحك الله بالخير يا بنيّ، هل نمت جيّدًا؟

راشد: ما أجمله من صباح! هاتي يدك أقبّلها..

الأمّ: الله يرضى عنك يا ابني ويفرجها على البلاد..

راشد: هل خبزتِ الخبز؟ الرّائحة منعشة..

الأمّ: طعام الإفطار جاهز ينتظر قدومكوأبيك..

تلك الأيّام المبنيّة من طوب السّعادة تمنّيت بقاءها إلى الأبد!

الأمّ: بمَ تفكّر؟ أراك حائرًا لا حياة بعينيك..

راشد: أفكّر فيك يا أمّي، اليوم إن شاء الله؛ سيذهب والدي في مهمّة أخرى لمدّة شهر كما أخبرنا، ماذا؛ ستصنعين؟

الأمّ: لنا ربّ يدبّر الأحوال!

راشد: أمّي! أعدك.. سألتزم فروضي الخمسة من اليوم وأترك عصياني هذا!

الأمّ ـمبتسمةـ: الله يتقبّل منك يا ابني، ويقوّيك، ويجعلك من الصّالحين..

هل كان دعاؤها صادقًا حقًّا؟ أأسمّى صالحًا وأنا الّذي قتلت ونهبت أرواحًا؟!

لم أصبح قويًّا رغم مرور أعوامي، كيف؛ سيتقبّل الله منّي عملًا وأنا الخائن لمن حولي؟!

الأب: يا أمّ راشد صبّحك الله بالخير، سلمت يداك على هذا الخبز زكيّ الرّائحة.

الأمّ: أسعد الله صباحك، قد طابت رائحته بطيب ماسكيه يا أبا راشد، ما حال صحّة ظهرك الآن؟

راشد: أنا أستأذنكم، اتّفقت مع حسّان أن نتناول طعامنا سويًّا؛ لأنّه سيغادر الوطن بعد ظهر الغد..

الأمّ: أقرّرت أمّ حسّان ترك زوجها في قفص الاحتلال؟! أكاد لا أصدّق!!

الأب: يبدو أنّك نسيت ما طرحتِ عليّ من أسئلة.. ظهري بخير يا زوجتي، وأنت يا بنيّ لتذهبفهو بحاجة لك..

راشد: أم حسّان أُخبرت أنّ عليها المغادرة؛ ليطلقوا سراح زوجها، وهذا ما آل إليه الأمر. شكرًا يا أبي سأحرص على أن أكون كما علّمتني، ولكن عدني أنّك ستعود إلينا!

الأب: سأكون في الصّفوف الأخيرة وأعود إليكم؛ لنأكل معًا مرّة أخرى إن شاء الله، انتظراني.

راشد: أويسأم الابن انتظارأبيه؟! سأنتظرك!

الأمّ: الله معك يا زوجي، ارجع لنا سالمًا.

الأب: كيف لا أعود وقد وعدت؟

قمت واثق الخطى أتلو كلمات والداي وما علّماني إياه، سرت قاصدًا صديقي العزيز لأودّعه، كم كنت حزينًا.. سأفارق من كبرت معه، أللأبد؟

وصلت إلى مخبئنا السّرّيّ،- وهو غرفة صغيرة بها طاولة بنيناها من قطع بناء قديمة، يقع في تلّة برزت بين وادٍ صغير وآخر مجاور له-

راشد:حسّان، حسّان، هل أنت هنا؟ حسّان! أخلفت وعدك مرّة أخرى؟ لا بأس سأنتظرك..

نزلت إلى مكاننا المعتاد؛ فحيّتني مفاجأة لم أتوقّعها..

راشد: من أنت؟!

-يفيض على وجهك ماء الغرق من التّفكير، ما تكون لحسّان هذا؟

راشد: أنا صديق وأخ له، ماذا تريد؟!

-قلت أخًا وصديقًا؟؟ لم لا تنظر أسفل الطّاولة؟ قد تجد ما يسعدك من أخيك وصديقك.

تملّكني شعور مفرط بالخوف، ما الّذي سيسعدني من نظرته المرعبة البادية على وجه كلماته؟! تجمّدت الحروف وما عدت قادرًا على النّطق بها، شربت ماء الغرق المصبوب والتفتتْ روحي سابقة جسدي، توقّف الزّمان لحظة أو قرنًا فأنا لا أجيد إحصاء مدّة الصّدمة.

وإلى وقتي هذا رجوت لو لم أذهب لوداع صديقي..

بعد مرور خمس سنوات بقيت مختفيًا من الوجود كما اختفت الصّداقة، وكما اختفى والداي، لم أعد، ولم يعودوا.

ولن أعد فهل سيعودون؟!

إلى أمّي الّتي في قلبي بقيت، ومن الوجود مُحيت: لا زلت على عهدنا ملتزمًا بفروضي، وأضفت فرض القتل الواجب في زمن الحروب.

يا ليتنا بقينا على مائدة طعامنا، نشمّ رائحة خبزك، أقسم أنّني مستعدّلمقايدة العالم كلّه مقابل أن أكون معك أنت وأبي!

-يا جنديّ، حان وقت اللعب.

راشد: أمرك..

جنديّ، بعمر راشد، طفل القلب، ويلعب، هذا تجميع مدهش للأحداث!

أتساءل. من هذا الّذي يدعى حسّان؟ وكيف تكون الصّداقة يا ترى؟

في سجن الاحتلال مراتب، إحداها تدعى (الخداع)، بها يجمّعون الأطفال؛ ليصبحوا ما أنا عليه الآن. يعلّمونهم الخيانة وكره الأوطان، وبهذا تنبت شجيرة الحاضر طاغية على لحظات الأمان. نهجر عائلاتنا ونقطّع حبال الأزمان، مهمّتنا توكّل إلينا بعد مرور ثلاثة أعوام، وأحيانًا أربعة، وبعضنا يموت لضعفه..

أمّا أنا بقيت لخمسة أعوام، وكما أنا الآن كان الّذي يدعى حسّان، بعد أن أوقع بي قتلوه! حين خاطبني الرّجل المخيف ذلك اليوم وطلب منّي

رؤية ما يوجد تحت الطّاولة رأيت جثّة صديقي الّذي استغلّني؛ لينقذ والده، كما سأستغلّ ضعيفًا آخر وأنقذ أبي..

لكنّني مختلف عنه! كانقد تربّى بين طيّات الفقدان المتتالي، أمّا أنا؛ فنعمت بالدّفء لثلاثة عشر عامًا، لا ألوم خيانته لي؛ لأنهم احتجزوا والده ولم يره طوال حياته، ثمّ أخلوا سبيله مقابل قتله. عاش تعيسًا، ومات دون دفء فوق قطرات الألم المثلجة..

ألومني أنا! أسمّي نفسي صديقًا ولم أقرأ يومًا أسطر الحزن بكتاب كلماته، وحياته، وتصرّفاته، خبت يا راشد!

-أيّها الجنديّ ذا الرّقم واحد انهض..

هنا نحن بلا قيمة، لا أسماء لنا، بل علينا أن نحمد الله؛ لأنهم أجهدوا نفسهم؛ ليطلقوا الأرقام على مواشٍ مثلنا. خُلقنا؛ لنستغلّ النّاس في أطوار عمريّة مختلفة، أو نموت!

راشد: نعم، أنا هنا.

-ستذهب مع أمّك المزيّفة إلى الجنوب، استعدّ الآن..

مزيّفة... أنا مراقب لا أستطيع فضح ما أقوم به؛ لأحمي الضّحيّة الجديدة، حجّة فاشل ضعيف! وأنت الّذي تعلم أنّ مصيرك الموت، لم لا تجازف وتنقذ نفسًا واحدة!

اتّجهنا إلى الجنوب ولحظات الموت تجري أمامي، اليوم سأترك حياتي؛ لتحيا ضحيّة مسكينة.

سنسكن بيتًا مهجورًا مجاورًا لعائلة "أبي القاسم"، اسمي رشاد الآن، وأمّي سلمى، ووالدي مقيّد داخل سجن الاحتلال،-صخرة حقيقة بين رمال الكذب!-

من عاداتنا زيارة الجار الجديد كما فعلت أم القاسم وولدها وابنتها هبة.

قاسم أصغر منّي بأعوام قد تصل إلى تسع، إذن هل ستكون الضّحيّة هذه الفتاة؟!

لا، لن أنقذ أحدًا! سأفضح الأمر وحسب!

أمّ القاسم: راشد؟

راشد: اسمي رشاد يا خالة..

أمّ القاسم: أعتذر، أواجه مشكلة بحفظ الأسماء..

-تبدّد خوفي حين نادتني باسمي الحقيقيّ، استشعرت وجود أمي حاضرة بيننا؛ فطريقة نطقهما للأسماء متشابهة، ويملكان عادة النّسيان هذه-

هبة: كم عمرك يا رشاد؟

راشد: ثمانية عشر عامًا.

هبة: وأنا ستّة عشر..

سلمى: رشاد ابني الوحيد، أمّا والده بين يدي المحتلّين منذ أعوام، وأنتم؟

أمّ القاسم: هل رأيتكم من قبل؟

سلمى: عشنا في الشّمال منذ تزوّجت، إن زرتها من قبل..

أمّ القاسم: قد تحدث صدفة كهذه. أستأذنكم الآن.

سلمى: هل تسمحين لرشاد الدّراسة مع هبة؟ لقد مضت مدّة منذ اجتمع مع من هم بنفس عمره؛ بسبب صدمة اختفاء والده..

-إذن فضحيّتهم الفتاة!-

أمّ القاسم: رشاد ابن ثان لي، لمَ لا أسمح؟

راشد: شكرًا لك يا خالة، ولكن..

سلمى: نعم، أشكرك، طاب يومكم.

ماذا تظنّ نفسك فاعلاً؟! ولكن ماذا؟! أخبرني! أنت رداء ملقى على الطّريق هنا، أداة لا فائدة منها، لا رأي يطلب منك! ستنفّذ ما أقول فقط، وإلّا متّ أنت ووالدك المحبوس حبس الكلاب!

أطرقت رأسي خائفًا من الموت. يا من قرّرت التّضحية، أتخاف الرّحيل؟! ماذا ترى بدنيا سلبت والديك منك ثمّ قتلت سعادتك؟! أتتوق للمزيد من الانكسارات؟ ارفع رأسك! أخجل من كونك أنا! هنا نحن نعيش بفؤاد محطّم، لا ترجُ المزيد، نفدت أفكار النّجاة!

رفعت رأسي ولكنّ الأوان قد فات، تركتني أحارب نفسي وذهبت؛ لتخبر قائدها ما جرى، يتوقون؛ لأسر حرّيّة البشر، يسعون؛ لتحطيم العلاقات. أهم منّا حقًّا؟ هل يتكوّنون من دم ولحم كما نتكوّن؟!

وهل تقارن نفسك بأقرانك؟ أنت قاتل، خائن!

في الصّباح طُرق الباب، هرعت نحوه؛ لخوفي على جيراننا الجدد من هؤلاء الوحوش.

هبة: صباح الخير يا رشاد، هذا خبز طازج حضّرته أمّي..

راشد: صباح الخير، لقد مضتْ مدّة طويلة منذ تناولته، شكرًا لكم.

هبة: ولمَ لا تطلب من والدتك إعداده؟ أأتيتم من الشّمال حقًّا؟! هناك تبرع المرأة بإعداده!

راشد: لظروف قاهرة يا هبة، ثمّ إنّني.

وضعت المدعوّة "سلمى" كفّها الباردة على كتفي، وشدّت عليه حتّى ظننتُأنّلا رخاء بعد شدّتها.

نفسي المحبوسة اعتلى صراخها تأوّهًا!

هبة: ثمّ إنّك تريد بدء الدّراسة من الآن صحيح؟ لنذهب..

سلمى: ما رأيك يا صغيرة أن تنتظري لحين إنهائه طعام إفطاره؟

-هل لاحظت هبة صرختي المكتومة؟-

هبة: لمَ لا، سأنتظرك في ساحة بيتنا..

سلمى: أخاف على ابني، هل تأتين أنت لمنزلنا؟

هبة: أعتذر يا خالة، ألسنا مسلمين؟ لا يمكنني الانفراد في خلوة مع شابّ غريب، هذا شرعنا. هل نسيت؟

سلمى: إلى اللقاء..

أغلقت الباب وقالت: يبدو أنّها ستكون مصيبة حقيقيّة!

وأنت أيّها الرّقم واحد، ألم تتجاوز حدود طاعتك؟

يبدو أنّك ماشية صلبة الرّأس!

أتنوي الموت مبكّرًا؟

قلت: سأسألك. ماذا تريدون من أرض بُنيت؛ لتضمّ نفوسًا صالحة؟!

لم تعكّرون صفوة حياتنا؟

سلمى: هذه أرضنا!

وأنت لا علاقة لك، هاتِ هذا الخبز واذهب إليها، ولا تنسَ أنت مراقب، جميع حركاتك وكلماتك أستطيع إدراكها..

لم أنقض عهدي بعد يا أمّي، لا زلت أصلّي رغم عذاب التّفكير المتنامي يومًا بعد يوم. وسأبقى بإذن الله فهو سبيل الأمل الوحيد الّذي طال لأسلكه!

أحرقتْ الخبز المعدّ بأيد طاهرة أمامي، ويستمرّ حرق ما أحبّ بسببهم.

ذهبت؛ لأستعيد بعضًا من أيّامي الضّائعة، فهل؛ سأسترجع ما احترق بفرن الحياة؟!

هبة: مرحبًا بالزّائر، طالب العلم، المجاهد.

راشد: أهلاً بك، وأعتذر عن إزعاجكم، ثمّ لمَ أكون مجاهدًا؟ أنا لا أنوي خوض حرب ضدّ أحد..

هبة: تكفيك هذه الأيام؛ لتصبح مجاهدًا بحقّ..

راشد-ضائع داخل أرض الحيرة-: سأكون بعنايتكم الآن.

هبة: أوّلًا وقبل كلّ شيء ستتعلّم بعض الإشارت المنسابة بين كلماتنا العامّية حديثًا.

راشد:إشارات؟ لم أسمع...

هبة: وكيف ستسمع؟ المهمّ أنّها موجودة..

أشعر أنّ عائلة أبي القاسم تعلم بشأن ما أمرّ به داخل سجن الخداع، تصرّفاتهم المبهمة وإحساس نظراتهم الحريص يجعلني أدرك هذا.

هل سأتمكّن من النّجاة؟ ادعيلي يا أمّي، ابنك الآثم يرفض قتل إنسان آخر..

هبة: بمَ شردت؟

راشد: أعتذر، كنت أفكّر بكيفيّة استخدامكم لها..

أعطتني هبة فرض اليوم..

مِن: تعني النّجاة.

إلى: تعني الغرق.

عن: ترمز إلى السّعادة.

في: ترمز للحزن.

ربّ: الانصياع إلى الأوامر.

الباء: التّحرّر.

على: الاجتياز.

الكاف: تعني علقت في أمر ما.

اللام: تعرض على غيرك المساعدة.

الواو: ترمز إلى طلبك المساعدة.

التّاء: تعني صديق، أو حبيب، أو أحد أفراد عائلتك.

مذ: تشير إلى مدّة طويلة.

منذ: تشير إلى مدّة قصيرة.

لعلّ: تعني الشّخص الغريب.

حتّى: كما تريد أو ترفض..

لا أنكر أنّني لم أفهم ما تخطّط له. هل هذه الإشارات تُستخدم فعلاً؟! ما أراه هنا حروف جرّ أُعطيت معانٍ غريبة!

سأحفظهم، لعلّ نجاتي تكون ببسط أيديهم الكريمة لي..

حين عودتي إلى سجني المنزليّ، تعرّضت للمساءلة والتفتيش خوفًا من (إرهابنا)، أنسمّى إرهابيّين عندهم؟! أحيانًا أرجو لو أستطيع فتح رؤوسهم المكسوّة ظلمًا، وأستطلع أيامهم المريبة!

أخذ رجل -يتقن العربيّة- ورقتي، حاول فهم ما كُتب ولكنّ العجز طمس معرفته المهترئة، سهرت الليل أحفظ حروف الجرّ ذات المعاني الغامضة، يبدو أنّ عقلي لا يستقبل أيّ معلومة جديدة، حتّى كدت أنسى الكتابة والقراءة..

في الصّباح اتّجهت إلى منزل جيراننا، كانت هبة تجلس تحت شجرة الياسمين وتبتسم ابتسامة ألم، حلّق حجابها الّذي تضعه فوق ذهب يكسو رأسها كطائر سمع ألحان الحرّيّة تناديه؛ فلبّى نداءها، كان شعرها يلمع مستجيبًا؛ لضوء الشّمس بحبّ، ولون عينيها واتّساعهما يشكّلان بؤرة الجمال فيها.

لأول مرّة أشعر بنبض قلبي يرقص هكذا!

أزحت ناظري رغمًا عنّي واختبأت؛ لأمنع نفسي حماقة ارتكاب إثم آخر..

انتظم نبض قلبي بعد دقائق، وكانت قد دخلت؛ لتحضر حجابًا آخر؛ فانتظرتها إلى أن خرجت..

هبة: صباح الخير، هل حفظت ...

قلت: نعم، نعم، حفظت!

هبة: تبدو "عن"، أم أنّك "في"؟

راشد: أنا "من" بفضلك..

هبة –ضاحكة-: بذل الجهد باد عليك، أحسنت عملًا..

راشد: شكرًا. هل يمكنني طرح سؤال عليك؟

هبة: تفضّل..

راشد: أين والدك؟ لم يأت معكم يوم وصولنا رغم عدم معرفتكم بأمر والدي.

سبقت الدّمعة المحجورة كلمتها، إن كان والدها قد أصابه مكروه من هذا الّذي رأيت ظلّه قرب النّافذة؟ !

هبة: هنا، معنا، هو مريض لذا لا يخرج من البيت..

كاذبة!

اعتذرت عن إعطائي درس اليوم ودخلت إلى المنزل، ندمت لطرح السّؤال..

عدت إلى سجني؛ فاستقبلتني سلمى، وقالت: اسمعي أيّتها الماشية نحن نريد منك التّعرّف إليها أكثر، وطرح أسئلة مشابهة للذي طرحته اليوم، هذا مهمّ لنا..

وافقت بلا نقاش؛ فقالت: ها قد بدأت تتقن التّصرّف مع من هم أعلى منزلة منك..

جلست أحاول ربط الأحداث، ومعرفة ما يحدث معهم، هل يكون هذا أحد أقربائها؟ أم أنّه والدها حقًّا؟ لماذا بكت إذن؟ هل يعاني من مرض خطير؟

وما يقلقني أكثر (لماذا تحاول هبة الاقتراب منّي؟) في كلّ الأحوال عليّ تحذيرهم بطريقة ما، أخشى أن لا تصدّقني، ويتمركز خوفي بفكرة رحيلهم عنّي وتركي وحيدًا من جديد، كيف اخترقوا جدار قلبي اللئيم بلحظات قليلة؟!

لو كنتِ معي يا أمي؛ لأرشدتِني، دائمًا يخسر المرء ما يريد تحت مسمّى "القدر".

وفي مساء يوم بعد مرور أسبوع تلو أسبوع أتت هبة للمنزل وأعطتني كتابًا؛ لأباشر القراءة، إذ تنوي اختباري بهل تتابع تقدّمي لاحقًا .

سلمى: لا ترفض لها طلبًا، قطعتنا الثّمينة تستحقّ!

راشد: أخبريني من هؤلاء؟

سلمى: أشخاص يعلونك منزلة، بمقام (ماشية حاكمة)..

راشد: ولمَ اخترتموني؛ لأنفّذ لعبتكم الرّخيصة رغم أنّها تجربتي الأولى؟!

سلمى: ستدرك قريبًا، لا تكثر عليّ، لا فائدة تنالها بمعرفتك..

بدأت القراءة بعد أن أنهوا فحصه، كتاب غريب مكتوب بخطّ اليد، قلّبت صفحاته ولم أجد ما يفيد، سأسألها غدًا إن شاء الله..

صباحًا أتت لاصطحابي، كانت فرصة مناسبة لطرح السّؤال خارج الحصّة..

راشد: هبة، ما الفائدة من الكتاب؟

هبة: تثقف.

-وبقيت تنظر إليّ، لا ترمش أبدًا-

وعندما عدت بدأت أجمّع حروف الجرّ؛ لأتمكّن من صياغة الجمل..

و، الكاف، مذ، التّاء..

طلب المساعدة، علقت في أمر، مدّة طويلة، أصدقاء، أو أحباب، أو أحد أفراد العائلة.

هل هذه صدفة؟

بالتّأكيد فهي لم تطلب منّي استخراجهم..

ولكن لو طلبت؛ لعلموا هم أيضًا بالأمر. أي خيار أختار؟ وما الثّقافة الّتي؛ سأجنيها من كتاب لا موضوع به!

سأكمل صفحة أخرى وأقرّر..

لعلّ، ربّ، إلى، في..

الغريب، الانصياع للأوامر، الغرق، الحزن!

هذه لا تعدّ صدفة أبدًا! وإن كانت فلا بأس بالمحاولة..

تمرّ السّاعات بسرعة، ويأتي الصّباح على عجل؛ لأزيح همّ التّفكير عن كتلة عقل لا فائدة مشوّش..

هبة: صباح الخير، أراك شاحب المحيا، هل أنت مريض؟

قلت: أنا لا أدرك شيئًا، ولا أفهم الألغاز، وأرجو حدوث الكثير!!

هبة: اهدأ يا رشاد، لا بأس دعنا نتعلّم المزيد اليوم، ما رأيك؟

أنا: نعم.

هبة: إذن. عليك كسب الثّقة بنفسك أوّلًا، ثمّ ستدرك أنّ ما تخوضه صحيح. افتح الصّفحة الثّالثة واقرأ..

راشد:اقلب الذّكريات؛ فتكوّن المعاني من الآن يبدأ، السّعادة ذاهبة لـحديقة بعيدة، وسكّين الخوف يقطّعك كـذكرى غير مرغوب فيها، وهنا ينبض الألم..

هبة: يكفي.

راشد:من، الكاف، اللام..

النّجاة، تعرض على غيرك المساعدة، علقت في أمر.

يبدو أنّني أتخيّل إذن..

هبة: اقلب الذّكريات؛ فتكوّن المعاني من الآن يبدأ. غدًا إن شاء الله سنكمل، أنا مشغولة اليوم بمساعدة أمي لتحضير المنزل، شهر رمضان على الأبواب..

سهرت الليل أفكّر، ثمّ أدركت الأمر أخيرًا، يرتكز المعنى الّذي تريد إيصاله لي بكلمة (اقلب) لهذا أعادت الجملة!

وبهذا المعنى: "من" سينقلب معناها إلى الغرق؛ لأنّعكسها النّجاة، "والكاف" ستصبح طلبي للمساعدة، أمّا "اللام" ستبيّن نجاتي بعد مساعدتهم.

أهكذا كان الأمر؟!

أدعوك مولاي، هِبْ للحقّ النّصر!

سأكتبلها رسالة وأطلعها على الحقيقة..

بـسم الله الرّحمن الرّحيم،،

من عيوب المرء التّفكير المستمرّ فهو يضفي طابع الإدمان داخل نفسكم، إنّ لله في خلقه شؤون يزرع الحبّ رغمًا عن النّفوس بمرور أيّام قليلة! ما رأيك يا ابنة جاري أن نخطو معًا خطوة السّعادة، وأأتي غدًا طالبًا يدك؛ لنكمل مسيرتنا الحياتيّة بانين من طوب الوطن بيت انتماء؟

أرجو أن لا تظنّ بي سوءًا، أريد لهم الخير فقط!

وحين ابتسمت الشّمس للسّماء قرأ متقن اللغة الرّسالة وأخبر سلمى عمّا بها..

سلمى: ألم تتعلّم درسًا غريبًا عندها؟ سنتفحّص الرّسالة..

التّرجمة:

التّحرّر، النّجاة، تعرض على غيرك المساعدة، السّعادة..

سلمى: لمَ قد تطلب يدها للزّواج حقًّا؟!

راشد: ألن يساعدكم هذا في عملكم؟

سلمى: أكاد لا أصدّق! اذهب إليها الآن.

هبة: صباح الخير، هل يمكنني الاعتماد عليك في مساعدتي اليوم؟

راشد: في ماذا؟

هبة: سأتوجّه إلى السّوق؛ لشراء مؤونة شهر رمضان..

راشد: سأستأذن أمّي سلمى..

لم أتوقع موافقتها أبدًا! قالت لي: لا بأس بمكافأة الماشية من وقتٍ لآخر..

توجّهنا إلى السّوق؛ فرأيت الوقت غير مناسب لأعطيها ما كتبت، وأريد توضيح الأمر بطريقة ما..

هبة: أشكرلك مساعدتك يا ابن عمّي..

راشد: ابن عمّك؟!

هبة: نعمفنحن غير مرتبطين بالدّم، ماذا أناديك؟

راشد: أنا لا أعرف أحدًا من عائلة أمي أو أبي؛ بسبب ابتعادهم عنّا؛ فظننت أنّ القدر جمعني بقريب الدّم صدفة..

هبة: يستطيع القدر منح هديّة أعظم!

راشد: هبة، هل يمكنك قراءة هذه؟

هبة: انتظرتك طويلاً!

احمرّ وجهي لفتحها الرّسالة، ظننتها؛ ستنتظر العودة إلى المنزل!

لم أستطع النّظر إليها، رغم أنّني لا أقصد معنى الكلام كما كتبته!

وبعد ولادة فكرة أخرى داخل رأسي نظرت إليها؛ فكانت تبتسم والخجل يضع أعلامه الحمراء على سطح وجهها البريء، قالت: سأفكّر بالأمر أكثر..

راشد:انتظري!

هبة: أنتظر ماذا؟

راشد: أقصد....

هبة: سأستشير أمي، لا تقلق..

عدت إلى المنزل وأخبرت سلمى عن رغبتي بالصّوم هذه السّنة مع الجيران؛ **فقالت**: لا مانع إن كنت تؤدّي عملك، لتفعل ما تريد قبل قتلك..

فكرة القتل تحوم حول رجائي لخلاص بيت أمّ القاسم، هل يجب عليّ منع قتلهم، أم أفرّ إلى أرض تأنيب الضّمير طوال حياتي؟! أرجوك يا هبة افهمي ما أقصده!

بعد أذان الفجر طُرق باب المنزل، توجّهت آملًا أن تكون هبة الطّارقة، رأيت الشّيء الّذي رجوت طوال عمري عدم رؤيته!

-ابتعد عن طريقي..

راشد: ألست أنت..

-من أنت؟

راشد: قاتل حسّان!! ماذا تريد؟!

-حسّان؟ هل أنت الرّقم واحد؟

ارتمى الغضب بحضن قوّة منعدمة، واستقطب الشّوق المؤلم صداقة أقيمت بمنزل القلب وبقيت رغم رحيل ساكنيه عنه، حاولت السّيطرة على نفسي الطّائشة خوفًا على روحي!

-أيّها الرّقم واحد لم أجئ؛ لقتلك اليوم، لا تخف..

راشد: أرجوك أعد إليّ لحظات حياتي! أنت سارقها!

-أتريدها؟! إذن لتمُت..

توسّعت الآفاق أمامي راجيًا الموت فبهذا؛ سأفوز مجدّدًا بمن رحلوا،

حتّى رأيت هبة واقفة خلفه والرّعب ينطق بفم عينها، وشحوب وجهها المليء نشاطًا ينادي عليّ بلا صوت، بدأتْ رجفة خوف الفقدان تسري بين عروق الحاضر ودم الماضي، حاولت السّيطرة على انفعالي؛ فأغلقتُ الباب بقوّة وكأنّني أطلب منها الرّحيل وعدم العودة أبدًا!

مرّ شهر إلّا بضعة ليالٍ وإلى اللحظة لم أجرؤْ على وضع عينيّ بعينيها.

ولم تقترب هي من المنزل كما طلبتُ بغلقي للباب، ولكن ألا تفهمين؟ أنا خائف!

سلمى: ماذا حدث؟ لم أرَ هبة هنا أو تذهب أنت إليها منذ وقت طويل!

راشد: تمرّ الآن بحساسيّة التّفكير، لقد عرضت عليها الزّواج وهذا متوقّع.

سلمى: متى ينتهي شهر صومك؟

راشد: بعد يومين، أو ثلاثة..

سلمى: سأُمْهلها أسبوعًا آخر، إن لم تستجب؛ سأضطرّ للتّصرّف..

راشد: لمَ عينتموني إذن؟!

ذهبتْ دون منحي إجابة تسكت تساؤلاتي، عليك أن تراعي شعور شابّ خسر كلّ شيء!! عدت أبحر في محيط الخوف، لا أهتدي لبرّ الأمان، خائف من الموت، وراغب به! وكيف لا أرغب بدواء مرضي رغم مرارته إذ إنّها الدّليل على فعاليّته المؤثّرة؟

هذياني هذا يُفقدني صوابي!

بقي أسبوع واحد فقط، ثمّ ماذا سيحدث؟ وكيف سيتصرّفون؟ هؤلاء وحوش لا يلتفتون للمرأة أو الطّفل، لن يهمّهم صراخها طالبة المساعدة!

أتخطّطُ لحلّ إذن؟؟

لا! ولا يمكنني وضع حياة أحد بين يديّ! سأستسلم للظّلم فقط..

نمت مع استمرار التّفكير، وبقي قلبي ينبض طالبًا منّي تحرير ما به من مشاعر، يزعجني صراخه، ولا يمكنني أن أحرّك قدرًا كُتب..

النّوم قبل صلاة العشاء من الشّيطان حقًّا! لقد غَزَت منامي، واخترقت أحلامي، ألا تعلم الآن أنّني هنا في خطر! أعيش مع غريب لا يحميني من شرارة الضّعف، ولا يهبني راحة الشّباب.

لم لا تنجو ومن معها فقط؟! عجزي يبطئ زمن حياتها ويقلّصه، ثمّ إنّني أريد لها حياة مطمئنّة كما وهبتني الأمان، لا تزالُ تعبر شارع طفولتها؛ لتصل أزقّة شبابها المكسو ألوانًا مشرقة.

كيف سأساعدها وأنا الفاضح لما يحدث بيننا؟ ألا تعلمين بوصول كلماتك كلّها إليهم؟ وعن طريق طالبك الّذي عرض عليك زواجًا لا نيّة له بتحقيقه!

لمَ ما زلتِ هنا؟

استجمعتُ شظايا جمل والدي وتذكّرت (فهو بحاجة إليك)، لو أنّني أسرعت يومها؛ لأنقذت الضّحيّة الأولى المقتولة بسببي، أو لمتّ معه على الأقلّ! كان بحاجتي حقًا ورددته إلى حجر ظالم بعدم إدراكي!

هل سأفقد عزيزًا آخر؟!

سلمى: استيقظي أيّتها الماشية..

راشد: سئمت منكم..

سلمى: ماذا قلت؟ سأبقي على حياتك الآن، لا زلنا بحاجة لك.

راشد: لنعقد صفقة مربحة، تخلّصوا منّي، واتركوا هبة وعائلتها!

سلمى: ماذا تظنّ نفسك؟ هل تأمرنا؟

راشد: لا آمركم! أرجوك اتركيها! لم تفعل ما..

سلمى: صمتًا، لست أنت من يقرّر!

ينتشر الباطل على أرض من نعيم؛ لتتحول بدورها مؤدّية دور "الجحيم"، وأصوات الحقّ تختفي تباعًا، ركضت نحوها لعلّي أنقذ أمانًا جرى بي، دون فائدة! لقد أغلقوا صنبورها، وحلّ القحط!

صباحًا اسأتذنت سلمى الذّهاب لإكمال عملي معهم.

قالت: قبل أن تذهب سأقول لك. هؤلاء يشكّلون خطرًا على بلادنا بأسرها. لم تبح لك عمّا يخبّؤونه عندهم وتدّعي أنّكجارها القريب منهم، تأكّد بنفسك..

راشد: كيف؛ سأصدّقك؟ كاذبة!

سلمى: أويهمّني؟! قد حذّرتك..

اتّجهت إلى جيراننا الطّيّبين، لأول مرّة سأدخل منزلهم المليء بالأسرار، طرقت باب قلبي، وبابهم؛ ليرفق الفؤاد بتحطّم نفسه، ويكفّ عن فعله!

هبة: قادمة..

صوتها يتجاوز صحرائي كأنّه سراب يوقع حركات الشّعور عن أحرف كلماتي، وينزل بآخري كمطر صيف حارّ، ليت عندي القوّة الكافية؛ لأحميك فقط! خسرت صديقي أولاً، وكنت السّبب بسجن والديللأبد، وفُقدت والدتي على إثرنا فما بقي عندي إلّاكم..

هبة: أعتذر منك!

راشد: ممّ؟!

هبة: نحن نريد مساعدتك حقًّا..

راشد: مساعدتي؟! اسمعي أنا لا أصلح؛ فقرب الأعداء منكم مسؤوليّتي..

أمّ القاسم: ادخل يا بنيّ.

راشد: السّلام عليك يا جارة..

أمّ القاسم: وعليك من الله سلامورحمة وتيسير أحوال..

راشد: تبدين قلقة يا خالة، ما بك؟

أمّ قاسم: تحيط بي أسوار من لوم الذّات يا بنيّ، هلّا هدمتها؟

راشد: ولم قد تلومين ذاتك؟

أمّ قاسم: يبدو أنّك لا تعلم من نحن حقًّا.

راشد: والله يا خالة ولا أعلم من أنا..

انطلقت رصاصة بارود الظّلم والألم من سلاح يعلن "أنا الفائز" واخترقت صدر الحنان؛ فتوقّف الزّمان كما حدث سابقًا، موت آخر أمام عينيّ، وبين يديّ، وبسببي!

صرخت هبة موجات خوف عوضًا عن تدفّق صوتها؛ لتغرق نفسي بها، تبارزتْ طيبة قلبها وإقبالها على حياة "الانتقام" أمامي، واعتلت نبرة الشّدّة ما قدّر لها..

هبة: مرّة أخرى؟ ستندمون!

راشد ـباك أمامهاـ: أرجوك اهدئي، لا أحتمل رؤيتك هكذا!

صباح بلا تغريد الطّيور هو صباح نعي جنازتك يا خالة.

راشد: كيف حالك؟

هبة:حالي؟! لن تفهم ما أمرّ به، أنا لا أهتدي لطريق أنجو بعبورها!

راشد: وأنا تائه معك، صدّقيني..

هبة: أعلم يا ابن عمّي، وأدرك ما حلّ بك..

راشد: ابن عمّك مرّة أخرى. هبة، من أنتم؟ ومن هذا؟ أخبريني.

هبة: نحن من تبقّى من العائلة الحاكمة للمنطقة الجنوبيّة، وهذا وريث أبي في الحكم العشائريّ، وأخو أمّي، وكما تعلم تربّت والدتك هنا، وهي صديقة عائلتنا منذ طفولتها..

راشد: ولم تخفون أمره؟ وكيف علموا بكم؟

هبة: عُرفنا بقوّتنا الهائلة، وقد قتلنا منهم كثيرًا. ارتمى والدي منحورًا أمامي من قبل على أيديهم كالأمس.

أمّا عن معرفتهم بنا فنحن نبرز بين النّاس بأمور كلون شعرنا المميّز، واتّساع أعيننا.

راشد: كيف؛ سأساعدكم؟ وبماذا؟!

هبة: باستثناء خالي المريض، أنت آخر فرد من القبيلة الحاكمة..

راشد: أنا؟! ولكنّني غريب..

هبة: لا، إنّ ملامح والدتك الرّاحلة تتّسم الوضوح بك.

هبة: أنا مضطرة للرّحيل، حياتنا في خطر الآن..

راشد: كيف؟! مؤكّد أنّك مراقبة!

هبة: لا تقلق، ولكن عدني أنّك؛ ستبقى على قيد الحياة لأجلي.

راشد: أنا أعدك.

راح من يدي سيل الأمل، تاركًا حياتي تُقيّد بقيود القدر..

عدت للمنزل أعاني مرض فقدان آخر، محاط بجليد المشاعر من كلّ جانب، وآمالي المعلّقة وقعت رويدًا رويدًا أمامي كما وقعت روح أمّالقاسم بمحاذاة أخيها الّذي من المفترض أن يسلّم قلبه قبلها، لكنّها الأقدار..

لا أعلم كيف؛ ستسير الأمور مع هبة، وهل تمكّنت من الهروب لأرضها؟ ثمّ ماذا سيحدث لي الآن؟ سأُقتل حتمًا! ووعدي لها سيتلاشى مثل وعد والدي لنا..

سلمى: قد أنجزت مهمّك يا ماشيتي الرّائعة!

قدّمت صدري على جسدي، وفتحت ذراعيّ مستعدًّا لمواجهة خالقي، نسيت صلاة المغرب! لا بأس عليك يا راشد، ستصلّيها برفقة الأنبياء والصّدّيقين، والشّهداء..

أغمضتْ صفحة حياتي عينَ العيش، ودعتِ الله أن يتقبّلها، وابتسامة هبة المودِّع الأخير لي داخل مخيّلتي، صدى صوتها يتردّد محتلًّا عقلي..

أرجوكِ اتركيني أرقد براحة!

سلمى: أهذا عرض من نوع ما؟

راشد: حان موعد موتي، أين القاتل؟

سلمى: من قال أنّك أنهيت عملك؟

راشد: هل؛ سأقتل ضعيفًا آخر؟

سلمى: هدفنا هبة وخالها، أمّا أمّها مجرّد دخيلة لا حاجة لنا بها.

راشد: أتقتلون الدّخلاء أيضًا؟

سلمى: نعم حتّى والدتك..

راشد: هل أمّي ميتة؟!

ابتسمت الشّرّيرة، وكالعادة تركتني دون جواب يشبع رغبتي الملحّة بمعرفة الحقيقة..

بزغت الشّمس سريعًا، يوم أمس تركتُ فروضي يا أمّي، سوى فرض القتل.. لا أزال ملتزمًا به!

غفوت بين يدي الله، وروحي العاصية تنتظر عفوه، راجية أن يهديها التزامًا خالصًا بما فرضه، وبعدًا تامًّا عمّا حرّمه؛ فتنهّدتُ غاز المعصية، وتوضّأت وضوء توبة، ثمّ قرّرت الصّمود؛ لأعرض على ابنة عمّي الزّواج كما يجب..

رحتُ أصلّي وأدعو الله باكيًا أن يحفظها بعينه الّتي لا تنام، وييسّر طريقها بيده الّتي لا تكفّ عن رزق مؤمن ولا عاصٍ أبدًا، وأتقرّب إليه بطول السّجود، ومدّ الرّكوع، والدّموع تختزل التّوبة..

توجّهنا عائدين إلى"سجن الخداع"، وكمكافأة لي؛ سأرى والديخمس ثوانٍ دون أن يراني.

كانت لحظاتي هذه نعيم دنيويّ، أن أرى والدي بعد كلّ سنوات الألم يعني بقائي؛ لأفي بوعدي فهو لم يخلفه بعد! –هكذا هوّنت على ضعفي-

ندبة كبيرة تركت أثر ما عاناه هنا على جبهته، تمنّيت تقبيلها، أو أن أسرق فرحتي وأهرب به إلى مكان عنوانه السّلام.

بدا نحيلاً جدًّا، ماذا يأكل؟!

-انتهى الوقت..

أرجوك قليلاً بعد!

أبي: راشد أنت هنا صحيح؟ رائحة والدتك التي ناطت عنّي لسنوات تخيّم على بقاع قلبي، عدني أنّك ستأتي من جديد، سأنتظرك!

لقد ضربوه أمامي؛ لأنّه تحدّث دون استئذان، أقسم أنّني عاجز يا أمّي، لمَ يوكّلون لي همّ الوعود هذه؟!

سرت ضيّق الصّدر إلى زنزانة الظّلم مجدّدًا، وأمطار سوداء تهطل على ذكرياتي محاولة إحداث الخراب بها، دون فائدة فأنا من رحم أم عُرفت بالقوّة، وابن أب حفظ جدار الأخوّة.

سيبقى قتلي لمن أحبّ موجودًا فالحقيقة لا يمكن نثرها، لكنّني؛ سأفي بوعودي على الأقلّ!

نمت مسند الرّأس المثقل بالأحداث الحزينة إلى جدار من طوب صُبغ بدم المعذَّبين، أنتظر فرض الأوامر من جديد مستعدًّا لملاقاة الموت في أيّ لحظة..

فاستُجيب لاستعدادي..

-أيّها الرّقم واحد، ستنطلق غدًا..

إلى أين؟

ولماذا؟

انتظريني يا هبة!

لا زلت أملك روحًا مستعدّة للمحافظة عليك مقابل فنائها!

أتساءل متى ستنتهي خدمتي؟ قد طال عليّ الأمر وأُجهدت ذاكرتي..

انطلقت الشّمس تاركة مهجعها توجّهت –وحدي- مع جنودهم إلى بقعة شماليّة حيث كنتُ أعيش..

انسابت الذّكريات أمامي بعد سبات البعد، أوجعتِني يا أيّامي!

-هنا هدفنا، هل أنت مستعدّ؟

راشد: أعتقد أنّ الوقت قد حان؛ لأتحلّى بالصّبر..

-ماذا تعني؟

راشد: أنا مستعدّ..

هذه المرّة سكنتُ في بيت حسّان نفسه. لا زلتُ أرانا داخل غرفته حيث كنّا نلعب!

هل كانت تلك والدته حقًّا؟! إنّ الحزن الّذي اعتلاها منذ عرفناها لم يُغيّر من ظهوره أبدًا، عكس حسّان الّذي لم يبكِ أمامي قطّ!

رتّبت المنزل على عجل، أبحث عن رائحته في كلّ مكان، وجدت خريطة مخبئنا، كان قد رسمها؛ لأنّه كثير النّسيان..

تفحّصتها جيدًا لعلّي أجد رسالة خفيّة، ولكنّه أصغر من أن يفكّر بأمور كهذه! طفل بعمره من المفترض أن لا يعرف معنًى للبكاء حتّى! لكنّها إرادة الله بخلق الأقدار مجدّدًا..

تذكّرت هبة رغمًا عنّي، أعتقد أنّني اشتقت لأوقاتي معها، لم يكن عليّ مخالطتها، هل دنّست قلبها؟!

بالطّبع، كلّ ما جرى كان بسببي..

أين هي الآن؟ إلامَ تخطّط؟

دار رأسي حول نطاق الحزن يبحث عن النّجاة متجاوزًا إيّاها، ويفكّر بما يجب عليه فعله.

قد كبرت يا راشد، جدْ الحلّ بسرعةها هي ضحيّة أخرى على وشك الموت!

-أنت، أيّها الرّقم واحد.. ألم تعتد انسياب هذه الحياة بعد؟

يجب أن تكون الأقوى بين المأسورين جميعًا!

راشد: أنت أوّل من يتحدّث معي بطريقة غير متعالية منذ حُبست.

ماذا تريد منّي؟؟

- كنت مثلك في يوم ما، ولأنّني لم أسبّب لهم المتاعب، وبقيت متمسّكًا بالحياة رغمًا عن كلّما مررت به، تاركًا ورائي من ادّعيت صداقته أو قرابته..

أثبتّ حقارتي، وعُيّنت جنديًّا عندهم..

راشد: ألا تندم على ما سبّبته؟!

-أنصحك ألّا تندم. رأيت عائلتي تموت أمامي، حمتني أختي الكبرى، وقتلتها أنا بيديّ؛ لأستمرّ بالعيش..

راشد: قتلت أختك؟ لماذا؟!

-قلت لك، أريد العيش.

راشد: هل يمكنني معرفة اسمك الحقيقيّ؟

-حقيقة أنا لا أذكره، مرّت خمسة وعشرون عامًا منذ ناداني أحد به، لكنّني ألمح مروره في أعماقي فإن رُدَّت إنسانيّتي أخبرتك به..

راشد: إذن سأناديك أيّها العمّ..

-عمّ ماذا؟

أنا هنالقتلك إن افتعلت فعلًا خاطئًا!

راشد: سأكون كما تريد، إن لم تقتل الضّحيّة التّالية.

-حظٌ قد تمسّك بك، ما نريده من هذه الضّحيّة أن تبوح عن مكان أفراد القبيلة الحاكمة الشّماليّة، ثمّ سأعود معك إلى المقرّ، لم نُخبر بضرورة قتلها، اطمئنّ.

راشد: هل أنت مسلم؟

-كنت مسلمًا، ولم أكفر بربّنا إلى الآن. لكنّني لم أؤدِّ فعلاً إسلاميًّا من قبل، حين أخذوني بلغت من عمري خمسة عشر عامًا، أي في مرحلة طيشي..

راشد: أنا أصلّي، لم لا نصلّي اليوم سويًّا؟

-أتدرك أنّني ممنوع من ممارسة عباداتي؟!

راشد: ممنوع!

-طال حديثنا أيّها الرّقم واحد، سأنتظرك لتستعدّ.

هذا العمّ عاش لحظات أسوأ ممّا عشت ولا يزال متمسّكًا بحياته، يبدو أنّه طيّب حقًّا، سأتقرّب إليه، لا بدّ من معرفة سرّ خلاصه!

زرنا العائلة المجاورة لنا، محتجّين ضياع والدتي مع القبيلة الحاكمة حين احتمينا بهم من كيد الأعداء.

هم عائلة لا أم بها ولا أب. إخوة حموا بعضهم بعضًا، سيكون صاحبي شابّ بعمري اسمه :أنس"، فقد والديه بحادث مؤسف قبل سنوات، وهو المسؤول عن إخوته الأطفال.

تقرّبت إليه سريعًا، كان يريد مصادقة أحد لشعوره بالوحدة.

لم يكمل دراسته، وعمل في ورشة صناعيّة؛ ليعيل عائلته الأخويّة، ويكملوا دراستهم كي لا يحتاجوا أحدًا من بعده.

يبدو سيّئ الصحة، وجهه أصفر شاحب كليمونة توشك على الفساد، ونحيل كغصن شجرة حديثة لا زالت خضراء، قضينا الكثير من الوقت معًا، وهو يسأل رفقاء عمله عن مكان عيش الأسرة الحاكمة.

وبعد ثلاثة أشهر كنّا نسير على رصيف الشّارع؛ فوقع أمامي والدّم يخترق فمه، ويتطاير إلى جوانب عديدة، لم أقوَ على التّصرف أبدًا!

وقفت لا يمكنني الحراك، وصوتي يخونني رافضًا إظهار نفسه؛ لطلب المساعدة؛ ففقدت وعيي من هول المنظر.

صحوت بعدها وأنا في فراش دافـء، ولم أجد أنسًا؛ فهرعت باحثًا عنه كمجنون فقد عقله.

هل سأفقد شخصًا آخر؟!

-إلى أين تتّجه أيّها الرّقم واحد؟

راشد: عمّي! أين أنس؟!

-لا أعلم لم اختاروك! أنت ضعيف حقًّا!

راشد: أرجوك يا عمّي، لا أطيق فقدان شخص آخر! لقد كان صديقي!!

-لا تخف يا بنيّ.

-ووضع كفه الحنون على رأسي حتى زال الهمّ.

-يده دافئة!-

أخذني لغرفته..

الطّبيب: هل أنت أحد أقربائه؟

راشد: لا، نحن أصدقاء.

الطّبيب: أين أفراد عائلته؟

راشد: والداه متوفّيان، وإخوانه أطفال.

الطّبيب: سأخبرك لتعرف كيف تتصرّف.

صديقك هذا مصاب بمرض وراثيّ قليل السّيادة، واسمه (التّليّف الكيسيّ)، يبدو أنّه قاومه كثيرًا؛ لتسوء صحّته هكذا.

راشد: وما العلاج؟!

الطّبيب: هذا مرض مميت، حيث تسبّب بفقدان المصابين حياتهم بنسبة خمسة وتسعين بالمئة! ولا يوجد علاج له، ولكنّ الاعتناء بالمرضى المصابين، والمقوّيات المخفّفة من أعراضه متوفرة ببلاد متطورة من المنظور الصّحيّ، إن كان محظوظًا نجا، وإن أراد الله أخذ أمانته.

راشد: هل يمكنه السّفر باسم مستشفاكم؟؟

الطّبيب: نعم، لكنّ التّكلفة عالية جدًّا، قد تصل لآلاف الدّولارات، لا أظنّك قادرًا.

راشد: أيّها الطّبيب اعتن به رجاء! سأعود ومعي المبلغ، أعدك!

نسيت من أنا، وكيف أنّني محكوم لا يسمح لي بالعمل أو الاختلاط مع غير الضّحيّة، قادتني قدماي إلى مخبئي السّرّيّ حيث عاشت طفولتي فيه، وحيث قُتلتْ أيضًا.

فتحت الباب المهترئ، ومضيت..

لا زال دم صديقي ينشر رائحته، جلست أبكي بين أحضانه؛ فسمعت صوته يرنّ في أذني: قم!

لقد جننت!

لا زلت أفقد المزيد والمزيد!

-قم!

راشد: يكفي يا حسّان، أنا قاتلك..

-أيّها الرّقم واحد! ما بك؟ تتركني وتذهب هكذا! وتتحدّث هنا مع نفسك!

راشد: هذا أنت يا عمّي. ظننتك أحدًا آخر.

-ما هذا المكان؟ رائحة الدّم تطغى عليه.

راشد: هنا عشت مع صديقي، وهنا قُتل.

-أتقصد حسّان؟

راشد: هل تعرفه؟!

-بالطّبع، كان أصغر مجنّد عندنا، جُنّد قبل ولادته.

راشد: لمَ قتل إذن؟

-لأنّه قرّر فضح نفسه.

راشد: كان ينوي حمايتي!

همّ آخر كساني، ضرب أرض أفكاري بكعب عال، وتوسّطه بانيًا مقرّ استقراره به.

-كيف تنوي علاج أنس؟

راشد: أنس؟

-استجمع شتات نفسك!

راشد: أعتذر يا عمّي. لا أستطيع العمل كما تعلم، سأتركه ورائي مثل بقيّة من عرفتهم وأمضي.

-يا بنيّ، ألست تحبّه؟ ما بك؟

راشد: وأنت، أكانت شقيقتك عزيزة عليك؟

لقد جرحته بكلماتي!

راشد: أعتذر يا عمّي، لقد فقدت تركيزي.

-لا بأس، هل تريد الذّهاب إلى بيتك القديم؟

راشد: حيث بقيت أمي! هل ستسمحلي؟!

-نعم.

مرّة أخرى، فرحة تجوب أرجائي بعد ألم معاناتي.

ستكون هناك تنتظرني!

وصلنا؛ فسألت الجار عن سكّان المنزل.

الجار: كان هذا المنزل لعائلة مكوّنة من والدين وابنهما، لكن وبطلوع فجر اختفوا جميعًا بيوم واحد، متفرّقين..

راشد: متى كان هذا يا عمّي؟

الجار: قبل ستّ سنوات أو أكثر، حقيقة لا أذكر فقد خبّأت أحداث عظيمة تلت حدث اختفائهم.

راشد: أيمكنني دخوله؟

الجار: لا أمانع، ولكن انتبه، لم يُرمّم منذ اختفائهم.

راشد: شكرًا يا عمّي.

دخلت مع العم الجنديّ إلى المنزل، لا زالت طاولة طعامنا موجودة!

وكيس من الخبز الّذي حضّرته والدتي فوقها، اقتربت منه؛ فاستبشرتُ انبعاث رائحته كما في الماضي..

بحثت عن أيّ شيء، ولم أجد سوى الفوضى؛ فعدنا أدراجنا؛ لأنّ اقترابنا من هنا ممنوع..

العمّ: كيف أصبحت الآن؟

راشد: هذا ظلم!

العمّ: ما هو؟

راشد:لمَ لا تتحرّر يا عمّي من قبضة الشّرّ الخانقة؟!

ابتسمَ ولم يجبني..

راشد: أتتني فكرة..

العمّ: أطلعني.

راشد: أخبرهم بصعوبة بقائه حيًّا، وأنّه لم يطلعنا على مكان سكنهم بعد، وهكذا؛ سيُجبرون على معالجته!

العمّ: هذا هدفهم الأوّل فقط! لقد بُعث مثلنا ثلاث فرق أو أربع لأشخاص آخرين.

وأتبع قائلاً..

العمّ: سأعطيك ما أملك من مال، مقابل تعليمي الصّلاة.

راشد: كيف تخونني أذناي في عمري هذا؟

العمّ: مجدّدًا! أنت لا تثق بنفسك رغم وثوقك بمن حولك.

راشد: ولكنّني أعلم أنّك لا تحصل على المال مقابل خدماتك عندهم!

كيف تملكه؟!

العمّ: لا علاقة لك، فقط علّمني الصّلاة، وسأضمن لك سفره مع إخوته..

وقبل طلوع الشّمس استيقظتُ؛ لأصلّي الفجر وأيقظته؛ فتوضّأ معي، ووقف بجانبي من جهة اليمين.

بدأت أقرأ سورة الفاتحة، وحين أنهيتها وقلت: "**وَلَـا الـضَّـالِّـيَنَ**" اعولّ بالبكاء حتّى أبكاني!

العمّ: لا أذكر متى كانت آخر صلاة لي! قبل ثلاثين عامًا، لا بل أكثر!

أشكرك يا راشد..

راشد: لقد نطقت باسمي يا عمّي!

ثمّ إنّ الشّكر لك الآن، لقد أنقذت صديقي من الموت.

العمّ: لعلّ الله يغفر ذنوبي، قد عدت إليه أخيرًا..

توجّهنا إلى المستشفى التي يقطن بها أنس، وكما قال الطّبيب؛ سيتدبّر المشفى أمر سفره مع عائلته؛ لتلقّي العلاج، ثمّ عدنا إلى "سجن الخداع" بعد إنهائنا مهمّتنا..

برد زنزانتي يلقّني من جديد، أسندت جسدي المثقل برأسي على حائطها، ورحت استرجع ذكرياتي..

حين أنجو من خرابي هذا؛ سأعيش مع أبي، وهبة، وخالها، والقاسم، وأمّي أيضًا!

لكنّها ماتت كما أخبروني..

لا مشكلة، سأبحث عنها، لن أصدّقهم بالتّأكيد!

لا زالت رائحة الخبز تشيّد عمار احتلالها رافضة المغادرة..

رائحة ماذا؟!!

كيف بقيت الرّائحة طوال سنيّ ظلمي؟!

هل كانت هذه مخيّلتي؟

كان البخار يتصاعد منه أيضًا!

أنا واثق!!

فزّ قلبي من مكانه، حاولت إيجاد عمّي؛ لأسأله إن رأى وشمّ ما رأيت وشممت..

-اعتُقل؟! لماذا؟

--يبدو أنّه ساعد الرقم واحددون طلب الإذن، وسمح له بزيارة بيته أيضًا!

ما هذا؟!

اعتقلوه بسببي!

خسر حرّيّته، أنا المذنب!

يا إلهي، أهذا اختبار منك؟

لقد أُهلكتْ روحي.

وضعتُ يدي على صدري أكبتُ ألمي وغيظي..

-انهض!

راشد: ماذا تريدون؟

-ستتعرّض للتّفتيش..

راشد: لماذا؟

-دون أسئلة..

حبست بغرفة مع رجل لا آدميّة بعينيه..

-ماشية قذرة!

فتّش جسدي وملابسي، وأُخليت زنزانتي.

وجد ورقة بجيبي؛ فظنّها مؤامرة ضدّهم، ضربني ضربة أدمى بها خدّي، ونادى من يتقن العربيّة..

قرأ الرّسالة بصوت عال:

إليك يا راشد، هل ميّزت رائحة الخبز؟ إذن لا تفقد الأمل!

اسمي عليٌّ يا بنيّ، لقد أعادت عذوبة صوتك بتلاوة آيات الرّحمن إنسانيّتي، لا تخف هذا المال ليس منهم، ولا لمسة حرام به، وضعته لي أختي قبل أن أقتلها، لقد خبّأته جيّدًا حتّى لا يسلبوه منّي، رجتني أن أصرفه بخير، وهذا ما فعلته لأوّل مرّة في حياتي!

حين أرى والدك؛ سأشكره على طيب تربيته الحسنة، وأوصل سلامك له..

أنت لم تقتل أحدًا بعدلذا انتبه لنفسك، وإيّاك والقتل!

بعثت كلماته بروحي لجنّة الشّعور..

أعدك يا عمّي عليّ؛ سأحافظ على نصائحك ولن أقتل أحدًا.. انتظراني؛ سأعود إليكما قريبًا..

وفي الصّباح عدت مع سلمى إلى البيت الجنوبيّ؛ لنكمل عملنا، ونجد هبة وخالها.

نبضاتي غير المنتظمة تتسارع على أمل رؤيتها، سأحميها بكلّ ما لديّ فهي آخر ما بقي!

سلمى: أصبحت مثيرًا للمتاعب..

لن أدعك تقضي على حرّيّتي كما فعلت مع الجنديّ من قبلي!

راشد: ومن طلب منك فعل شيء؟ خافي على نفسك منّي الآن.

سلمى: أتهدّدني ماشية مثلك؟!

أمطار تفاؤل تهطل، وأصوات من أحب تشجّعني.

جميعهم ينتظرون عودتي!

أمّي، أبي، هبة، العمّ عليّ، حسّان، خالتي أم القاسم.

سيلقى الأعداء من الله ما يستحقّون!

أخذتُ من سلمى على حين غرّة منها سلاحًا يمكّنني من حماية هبة إن وجدتها، ثمّ بدأت البحث عنها.

أصبحتُ أستشعر مراقبتهم لي، احفظها يا الله من بطش أعدائك الظّلام!

وبعد البحث وتقصّي الأخبار لشهر حدّدتُ مكانها؛ فتوجّهت فجرًا إلى حيث تكون على أمل وصولي قبلهم.

انّشح الأسى حلمي الضّائع بعد أن وجدته وأسره، لقد كانوا هنا مسبقًا!

هبة تصرخ بين يدي رجل غبيّ، يظنّ نفسه على منزلة تمكّنه من لمسها!

تسلّحتُ سلاحي المسروق، وبلا إدراك أطلقت رصاصة طائشة، يعمّها الغضب؛ فأصابت كتف هبة! فُتحت أبواب الجحيم أمامي بدمها الأحمر الكاسي للشّمس المشرقة، نظرتْ إليّ وهي تبتسم، أنت غير مؤهّلة للابتسام الآن!

ماذا تفعلين؟!

خارت قواي، وتوقف هطل مطر تفاؤلي على جسد حياتي المزدحم بدهون المعصية.

رأيتهم يأخذونها، ولم أتمكن من فعل شيء، أنا ضعيف!

هبة: لا تقلق يا راشد! سأكون بخير..

تهدّئني بحالتها المزرية هذه! فعل يدعو للضّحك حقًّا!

"أُنَاجِي شُمُوسَ البُعْدِ لَا تَتَوَقَّدِي

دَعِي فَجْرَنَا يَسْودُّ نُورًا بِحُلْمِنَا"

.....

بعد مضيّ عشرة أعوام لا زلت مقيّدًا بينهم، لم أرَ هبة خلال هذه المدّة، ومُنعت من لقاء والدي..

أنا هنا، وأنت ضائعة!

-أيّها الرّقم واحد..

راشد: اصمت، لا يحقّ لك أن تأمرني!

أصبحتُ أُعرف بـ"مجنون الشّعور"

لقب مناسب.. الجميع يتجنّبني.. نحيل، أشعث، رثّ الثّياب، لا يمكنه السّيطرة على مشاعره حين يتذكّر ما جرى معه، حاولوا التّخلّص منّي، ولم يجرؤوا! بالطبع فأنا حاكم قبيلة الجنوب الّتي لم يبق منها أحد، قُتل خال هبة، وقتلتها أنا بيديّ!

صوت الرّصاصة وهي تخترق جسدها ينبش قبور ذكريات عقلي..

-إنّه يصرخ مجدّدًا!

--لنذهب من هنا..

وبعد أن أنهوني قرّروا تحريري، ألا تنوون الإجهاز عليّ!؟

أرجوكم خفّفوا حملي!

خرجت من زنزانة الظّلم، ثمّ توجّهت إلى منزلي؛ لأستريح بقيّة حياتي، احتميت بظلّ أمّي الّذي بات هنا وحيدًا، توجّهت إلى منزل حسّان المهجور، ألقيت السّلام على أيّامي مع العمّ عليّ، وعاودت صلاة الفجر في المكان ذاته؛ فسمعت صوت بكائنا من جديد، خرجتُ متوجّهًا إلى مخبئي السّرّيّ؛ فرأيت أنس يخرج من منزله، لقد عاد!

أنس: ألست رشاد؟!

راشد: أنس!

أنس: لقد طفتُ الوطن باحثًا عنك، ولم يتعرّف إليك أحد،

أخبروني بما قمت به لأجلي ولأجل عائلتي، شكرًا لك!

راشد: لم أفعل شيئًا، عمّي عليّ هو من فعل.

أنس: عمّك! ألم يكن والدك؟!

أخبرت أنس ما جرى بحياتي منذ نمت شجيرة الحاضر، كرهت نظرة الشّفقة الّتي اعتلت سكون عينيه!

لقد تزوّج، وأنجب طفلًا سمّاه رشاد! ليتني أخبرتك اسمي الحقيقيّ!

أعطاني ورقة أحضرها له طفل صغير اسمه القاسم! وأخبرني ما حدث..

القاسم: ألست أنت صديق رشاد؟

أنس: هل تعرفه؟؟

القاسم: لا، ولكن هذه أمانة من أحد له، أرجوك إن عاد إلى هنا أعطيه إيّاها!

الرّسالة:

السّلام عليك ورحمة الله وبركاته..

ما أحوالك؟ كيف تسري حياتك؟ أعتقد أنّك الآن قد تحرّرت، لا تخف! أنا أيضًا أنتظرك وأفراد قبيلتك بمكان ما.

حين تكون على قدر من القوّة لتتسلّم منصبك ستجدنا، كن على ثقة بنفسك!

وأُجيبك على عرض قديم قدّمته لي:

لا زلتُ أنتظرك بمكاننا؛ لـنبني حياتنا معًا، قد كتبتُ رسالتي هذه مذ تركتني، وسلّمتها منذ عرفت ما أكون، خُلقتُ لنكون معًا فاتّجِه إلينا حالًا!

وأقول: لا حاجة لأن تقلب الذّكريات الآن..

هبة على قيد الحياة!

راشد: أنس، متى تسلّمت هذه الرّسالة؟

أنس: منذ سنتين أو ما يزيد عنها قليلاً، لماذا؟

راشد: إنّها حيّة بمكان ما، لا تزال تنتظرني!

أنس: أبارك لك يا صديقي، سأوصلك إليها، أين موقعها؟

راشد: لا أعلم! يجب أن أعرف منمحتوى الرّسالة.

أدرك أنّها تعيش في الجنوب، ولكن أين؟!

مكاننا؟

أكان لدينا مكان يجمعنا؟

ساحة المنزل!!

أنس: ساحة منزلها؟

راشد: نعم! حيث اجتمعنا، ودرسنا، وعشنا، وافترقنا!

أنس: لنتوجّه إليها إذن..

هل كُتب الفرح بحياتي حقًّا؟! بعد كلّ سنوات الظّلم أتحرّر، واجتمع بها من جديد!

وصلنا بعد ساعات سفر وقرون انتظار، توجّهت إلى منزلها؛ فرأيت نورًا خافتًا يشتعل حيث ماتت أم القاسم..

كانت هبة تنظر من النّافذة.. تنتظرني!

لم أتمالك نفسي؛ ففاضت عيناي وعلا صوتي: هبة، لقد أتيت!!

ابتسمت تلك الابتسامة التي ودّعتها بها، ولمعت مقلتاها بدموع الفرح..

هبة: تأخّرت!

راشد: أدرك هذا، أنا آسف..

هبة: ولكنّك أتيت!

راشد: لأسدّ ديني.

سنعقد قران الفرح على الأمل ونتزوج، أعدك لن أتركك!

هبة: نعم لنُعيّن حاكم القبيلة القويّة التي ظهرت من جديد، ثمّ لنتّجه حيث والدك، ونباشر البحث عن والدتك..

حلّ صباح الفرح، وصحت شمس الأمل ناشرة خيوطها الذّهبية؛ لتدفئ قلوبنا بعد سنين الثّلوج.

ها نحن نملك حلمًا من جديد، ونسعى؛ لنجد ما أضعناه، قد مضى من حياتنا الكثير، وبقي الكثير أيضًا، كبرنا وطيف من نحبّ يعيش بنا لنصل!

وبعدها توجّهنا حيث يكون أبي، وعمّي مع مئات المحاربين الأقوياء، ويقودهم أخوهم الّذي كان قد سيطر عليه اليأس من قبل، ضعيف الإرادة، عديم الخبرة في الاختيار، ترك كلّ صفاته السّيّئة وتاب عن أخطائه الجسيمة، ثمّ سار نحو النّور مع زوجته المخلصة..

راشد: هبة..

هبة: ما بك يا زوجي؟

راشد: كنت أرى بعينيك مغفرة أكوام عهن ذنوبيلذلك تبعتك!

هبة: يا أبا وطن، زوجتك تمنّتك، وتحقّقت أمنياتها أخيرًا.

ستكون وطن خيّرة فتيات بلادها كما كان والديها..

انتهت